Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 32:1 (1996)

الموضوعية فى البحث العلمى

محفوظ عزّام

توطئة:

من المقرر لدى علماء المناهج أن الموضوعية إحدى المقومات العقلية المهمة للشخصية العلمية؛ كما أنها ـ فى الوقت نفسه ـ إحدى المقومات النفسية الخلقية لهذه الشخصية؛ يضاف إلى هذا أنها إحدى الخصائص المهمة للتفكير العلمى.

ومن هنا تأتى أهمية الحديث عن "الموضوعية فى البحث العلمى". ومن الجدير بالذكر القول بأن "الشخصية العلمية" لاتكون جديرة بهذا الاسم إلا إذا تحلت بعدد من المقومات الأخلاقية والانفعالية من أهمها "الأمانة" و "حب الحقيقة"؛ فحب الحقيقة طابع أساسى للشخصية العلمية أو الباحث، وذلك لأن الإنسان يميل ـ بطبيعته ـ إلى الراحة وتجنّب العقبات والمشكلات والإرهاق العقلى. والواقع أن العقل الذى يخلد إلى الدعة والراحة يشب على الحماقات والسخافات التى لا يمكن اقتلاعها إلا بمداومة التفكير والتثقيف[1]. أما شخصية العالم فهى شخصية مولعة بحب المعرفة،

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

تجد لذتها فى الاحتيال لوصالها، وسلواها فى معالجة مشكلاتها، ونشوتها فى الغيبوبة بين أحضان مراجعها ومختبراتها إلى درجة تنسى معها كل ما سواها، حتى إنها تنسى أمس حاجاتها المادية وهى اللقمة التى تقيم صلبها. كما أن الباحث المحب للحقيقة أمين مخلص، لا يستغل نشاط عقله فى اللعب بالأفكار وتشويه الحقائق تحت تأثير أي غرض مهما يكن، ذاتيا كان أو حزبيا أو وطنيا أو غير ذلك.

ومن المهم هنا أن نقول إن الشخصية العلمية لا تؤتى ثمارها المرجوة منها إلا إذا تحققت لها الحرية التى تسمح لها بالتعبير عن آرائها دون حرج أو عنت، وفى الوقت نفسه لابد أن تتوافر لها الإمكانيات المادية التى تساعدها على تنفيذ مشروعاتها العلمية.

ونود هنا ـ قبل أن ندخل إلى الموضوعية ـ أن نشير إلى مفهوم كلمة "البحث" وأنواعه والمناهج المتبعة فيه، والهدف منه.

أ ـ مفهوم البحث:

تدل مادة: "البحث" فى اللغة على التفتيش والتنقيب والفحص[٢]؛ أما فى الاصطلاح فيعرف البحث "بأنه" محاولة لاكتشاف المعرفة، والتنقيب عنها، وتنميتها، وفحصها، وتحقيقها بتقصّ دقيق، ونقد عميق، ثم عرضها عرضا مكتملا بذكاء وإدراك، لتسير فى ركب الحضارة العالمية، وتسهم فيه إسهاما إنسانيا حيّا شاملا"[٣].

إن هذا التعريف الذى اخترناه يقتضى أمرين مهمين هما:

١- أن يكون هناك هدف واضح ومحدد من وراء البحث.

٢- أن يكون هناك باحث له من المقومات والمؤهلات ما يجعله جديرا بهذا الاسم؛ أي باحث اكتملت له عناصر البحث العلمى وأدواته المختلفة.

ب ـ أنواع البحث ومناهجه:

من المعروف أن البحوث تختلف باختلاف المجال المراد البحث فيه، ومن ثم فهى تظهر فى أنواع وأشكال مختلفة، فهناك بحوث تجريبية، وهناك بحوث تاريخية، وهناك بحوث فلسفية وهناك بحوث اجتماعية وأخرى ثقافية، وغير ذلك.

وإذا كانت البحوث تختلف تبعا للمجال والموضوع المراد البحث فيه؛ فهى تختلف ـ أيضاً ـ تبعا للمنهج؛ فكل علم من العلوم له منهجه الخاص فى البحث.

وهنا ملحوظة جديرة بالانتباه، وهى أنه يجب التفرقة الدقيقة بين "مناهج البحث" وبين "الأطر" التى تظهر فيها هذه البحوث وتلك المناهج. والواقع أن هذه الملحوظة جديرة بأن ننتبه إليها، لأن عدم التفرقة يؤدى إلى الخلط أو التخليط فى البحوث والأطروحات الجامعية لدى طلاب الدراسات العليا فى مرحلتى الماجستير والدكتوراه.

فالمراد بالمنهج ـ بصفة عامة ـ أنه وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة، أما "المنهج العلمى" فالمراد به أنه خطة منظمة لعدة عمليات ذهنية أو حسية، بغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة

عليها. فالمنهج إذن، هو الخطة التى يسير عمل الباحث وفقا لها، ليسجل ما انتهى إليه علمه من نتائج فى علم من العلوم. ولهذا عرّف المنهج بأنه: "فنّ التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، وإما من أجل البرهنة عليها حين نكون بها عارفين"(٤).

وهذه المناهج(٥) تتعدد ـ كما ذكرنا ـ تبعا لاختلاف العلوم التى نبحث فيها.

فهناك المنهج التاريخى: وهو منهج يعتمد على النصوص والوثائق التى هى مادة التاريخ الأولى ودعامة الحكم القوية؛ فيتأكد من صحتها ويفهمها على وجهها الصحيح، ولا يحملها أكثر من طاقتها. وبذلك يستعيد الباحث الماضى، ويكون أجزاءه البالية والمتناثرة، ويعرض منه صورة تطابق الواقع بقدر الإمكان.

وهناك المنهج التركيبى: وهو جملة أساليب ترمى إلى تصوير أحداث سابقة، وإثبات وجودها عن طريق الوثائق والعلاقات الموجودة حاليا؛ وأوضح ما يستخدم فى الدراسات التاريخية والبيولوجية.

كما أن هناك المنهج الذاتى: وهو منهج يقوم على تفسير الظواهر فى ضوء المشاعر والميول الداخلية؛ وأكثر ما يطبق فى علم النفس؛ ويتلخص فى تأمل باطنى ينصب على ما يجرى فى عالم الشعور، ويسمى الاستبطان.

وهناك المنهج الكمّى: وهو الطريقة التى يستخدم معها الباحث بيانات كمية (كالعدد أو الحجم أو المقياس، أو الوزن) للوصول إلى نتيجة.

وهناك ـ أيضا ـ المنهج المقارن: وهو مقابلة الأحداث والآراء بعضها ببعض، لكشف ما بينها من وجوه شبه أو علاقة؛ والمقارنة والموازنة من العلوم الإنسانية، بمثابة الملاحظة والتجربة من العلوم الطبيعية(٦).

ويمكن القول بأنه على الرغم من اختلاف هذه المناهج إلا أنها يمكن أن ترد إلى منهجين هما:

١- منهج الاستدلال.

٢- منهج التجريب.

ويضاف إليهما منهج ثالث خاص بالعلوم الأخلاقية ــ أو التاريخية ــ هو منهج الاسترداد(٧).

هذه أمثلة لبعض المناهج التى تستخدم فى البحوث العلمية؛ وهناك كتب كثيرة نجدها فى المكتبة العربية الحديثة تتحدث عن مناهج البحث فى العلوم المختلفة.

أما فيما يتعلق بالإطار الذى يظهر فيه البحث، أو "الأطر" التى تظهر فيها البحوث، فهى "القوالب" التى يلتزمها الباحثون فى وضع بحوثهم.

ومن الطبيعى أن يكون هناك فرق بين "منهج البحث" و "الإطار" أو "القالب" الذى يصوغ فيه الباحث بحثه؛ ذلك لأن

البحث للوصول إلى الحقيقة يختلف عن طريقة عرض هذه الحقيقة. فعرض البحث يكون مرحلة تالية لمرحلة البحث. وهذا ما يدل عليه تعريف المنهج الذى ورد ذكره آنفا.

ج ـ الهدف من البحث:

أيا كان نوع البحث، وكيفما كان المنهج المتبع فيه، وسواء أكان البحث مقالة أو رسالة أو أطروحة، فإنه لا بد وأن يكون هناك هدف يبتغى من ورائه، وإلا كان الأمر عبثا لاطائل تحته. ففى الرسائل والأطروحات الجامعية ـ مثلاً ـ يكون الهدف الرئيسى من مثل هذه البحوث أن يسهم الباحث إسهاما واضحا فى واحد من المجالات الآتية:

١- فهو إما يستنبط طريقة جديدة فى معالجة بحث ما.

٢- وإما أن يحيى موضوعا قديما، ويحققه تحقيقا علميا دقيقا لا تشوبه شائبة.

٣- وإما أن يكتشف حقائق لم يسبق إليها أي باحث من قبل.

٤- وإما أن يقدم فهما جديدا للماضى، وبعثا جديدا للحاضر المعاش[٨].

ولقد أفاض علماؤنا المسلمون فى الحديث عن غايات البحث ومقاصده:

فهذا ابن خلدون يعقد فصلا فى "مقدمته" فى المقاصد السبعة التى ينبغى اعتمادها فى التأليف فيقول: "ثم إن الناس حصروا مقاصد التأليف التى ينبغى اعتمادها وإلغاء ما سواها، فعدوها سبعة:

أولها: استنباط العلم بموضوعه، وتقديم أبوابه وفصوله، وتتبع مسائله، أو استنباط مسائل ومباحث تعرض للعالم المحقق يحرص على إيصالها لغيره، لتعم المنفعة به فيودع ذلك بالكتابة فى الصحف، لعل المتأخر يطلع على تلك الفائدة.

وثانيها: أن يقف على كلام الأولين وتواليفهم، فيجدها مستغلقة على الأفهام، ويفتح الله فى فهمها فيحرص على إبانة ذلك لغيره ممن عساه يستغلق عليه لتصل الفائدة لمستحقها؛ وهذه طريقة البيان لكتب المعقول والمنقول، وهو فصل شريف.

وثالثها: أن يعثر المتأخر على غلط أو خطأ فى كلام المتقدمين ممن اشتهر فضله، وبعد فى الإفادة صيته، ويستوثق من ذلك بالبرهان الواضح الذى لا مدخل للشك فيه، ويحرص على إيصال ذلك لمن بعده.

ورابعها: أن يكون الفن الواحد قد نقصت منه مسائل أو فصول بحسب انقسام موضوعه، فيقصد المطلع على ذلك أن يتمم ما نقص من تلك المسائل ليكمل الفن بكمال مسائله وفصوله ولا يبقى للنقص فيه مجال.

وخامسها: أن تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة فى أبوابها ولا منظمة، فيقصد المطلع على ذلك أن يرتبها ويهذبها ويجعل كل مسألة فى بابها.

وسادسها: أن تكون مسائل العلم مفرقة فى أبوابها من علوم أخرى، فيتنبه بعض الفضلاء إلى موضوع ذلك الفن وجمع مسائله، فيفعل ذلك ويظهر به فن ينظمه فى جملة العلوم التى ينتحلها البشر بأفكارهم.

وسابعها: أن يكون الشيئ من التواليف التى هى أمّهات للفنون مطولا مسهبا، فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرر إن وقع، مع الحذر من حذف الضرورى، لئلا يخل بمقصد المؤلف الأول"(٩).

ويذكر صاحب "كشف الظنون" ما يقرب مما قاله ابن خلدون، ولكن بشكل مختصر، فيقول: ثم إن التأليف على سبعة أقسام، لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها، وهى: "إما شيئ لم يسبق إليه فيخترعه؛ أو شيئ ناقص يتممه؛ أو شيئ مغلق يشرحه؛ أو شيئ طويل يختصره دون أن يخل بشيئ من معانيه؛ أو شيئ متفرق يجمعه؛ أو شيئ مختلط يرتبه؛ أو شيئ أخطأ فيه مصنفه فيصلحه"(١٠).

ويلخص الشيخ جمال الدين القاسمى المقاصد من التأليف بقوله: "ينبغى ألا يخلو تصنيف من أحد المعانى التى تصنف لها العلماء، وهى:

اختراع معدوم، أو جمع متفرق، أو تكميل ناقص، أو تفصيل مجمل، أو تهذيب مطول، أو ترتيب مختلط، أو تعيين مبهم، أو تبيين خطأ"(١١).

هذه هى أهم الأهداف والمقاصد التى تتوخى من وراء البحث العلمى فى أي موضوع من الموضوعات وأي مجال من المجالات التى يبحث فيها العلماء.

فإذا حدد العالم نوع بحثه ومقصده من هذا البحث ومنهجه فيه فإن عليه أن يضم إلى ذلك مقوما عقليا مهما هو النزاهة والموضوعية فى البحث.

د ـ الموضوعية:

تعد الموضوعية مقوما عقليا هامّا للشخصية العلمية، كما أنها تعد مقوما أخلاقيا ونفسيا لهذه الشخصية، وهى فى الوقت نفسه إحدى الخصائص المهمة للتفكير العلمى. ولهذا ينبغى لنا أن نقف عندها وقفة متأنية متأملة حتى نتعرف على هذا المقوم المهم من مقومات الشخصية العلمية.

الواقع أن الموضوعية تعنى ـ فى مفهوم بسيط ـ أن يحرص الباحث أو العالم على معرفة الوقائع كما هى فى الواقع، لا كما تبدو فى تمنياته هو. وهذا يعنى ـ بالضرورة ـ أن يكون الباحث نزيها فى بحثه؛ والنزاهة تعنى ـ فى مفهوم بسيط أيضا ـ إقصاء الذات، أي تجرد الباحث من الأهواء والميول والرغبات وإبعاد المصالح الذاتية والاعتبارات الشخصية؛ ومن ثم فهى تقتضى إنكار الذات وتنحية كل

ما يعوق تقصى الحقائق من طلب شهرة أو مجد، أو استغلال للثراء، مع اعتصام بالصبر والأناة، وحرص على توخى الدقة حتى يتسنّى للباحث أن يفحص موضوعه فى أمانة ومن غير تحيّز. وكل هذا يستلزم ــ بطبيعة الحال ــ طاقة أخلاقية وروحا نقدية وتحرراً من أي سلطة يمكن أن تملى عليه رأياً مهما تكن هذه السلطة. بهذا يستطيع العالم أو الباحث أن يتوخى الحق ويخلص فى طلبه، ويستبعد التعصب، ويتفادى إغراء الهوى، ويتفانى فى تحرى الحقائق وتمحيصها، وفاء بحق الأمانة العلمية.

فالباحث حينما يتصدى لبحث موضوع ما ينحصر فيه، ولا يدخل فيه ما ليس منه ولا يشرك معه شيئاً آخر؛ وسبيله إلى ذلك أن يقف من الظواهر الخاصة به موقف الفاحص المتأمل، ويستفتيها فى تواضع وفطنة، ثم ينتظر جوابها فى إصغاء ويقظة، مصما أذنيه عن كل ما عدا ذلك من أمور، وما تنبئ به الظاهرة يكون هو الصحيح ويجب أن يذعن له ويخضع.

ولا شك أن الإذعان لحكم الظواهر يقتضى استقلال العقلية العلمية وتحررها من ربقة الأفكار السابقة، واعتصامها بالشك حيال كل ما تلقته دون أن تضعه على منضدة البحث، وتتثبت من صحته على هدى منهج علمى صحيح.

والمقصود بالشك هنا "الشك المنهجى" الذى عرفه المسلمون فى بحوثهم، كما عرفه المفكرون الغربيون أيضاً. ومن الجدير بالذكر هنا أن نقول إن المسلمين كانوا أدقّ من علماء الغرب

ومفكريهم فى تسمية "الشك" حيث سمّاه المسلمون "تشككا" تميزا له من الشك بالفعل ويقول ابن سينا: "ولى فى الأصول المشرقية خوض عظيم فى التشكك ثم فى الكشف"(١٢).

والحق أن الشك المنهجى أو التشكك نوع من الحذر يعصمنا من التسليم بفكرة من حقها أن ترفض، أو نتردى فى خطأ من شأنه أن يتجنّب؛ ولا يصح أن ينقلب التشكك إلى شك بالفعل، أو إلى شك فى الحقيقة وفى العلاقات القائمة بين الظواهر؛ فإن الشك فى وجود الحقيقة يتناقض مع السعى فى طلبها، والشك فى أحكام الظواهر يتناقض مع استفتائها والاحتكام إليها.

إن إيمان الباحث لا معنى له إلا الاعتقاد بوجود الحقيقة وبحتمية الترابط بين الظواهر، وبأن الأمور لاتجرى بمحض الصدفة أو الحظ، ولكن وفقا لقانون ثابت لا يبرم اليوم ما ينقضه غدا.

إن الموضوعية تعنى أن يكون الباحث طالبا للحق، منصفا، لايتعصب لفكرة سابقة أو لشخص ما أو حزب أو طائفة أو مذهب أو بلد أو غير ذلك مما يتعصب له الناس.

فالروح المذهبية ــ مثلا ــ روح تتمتع بمفارقات عجيبة؛ إذ هى لا ترى إلا ما تريد أن ترى، وبالمقدار الذى تريد أن ترى، وتحجب سائر ما ترى بحجاب مما ترى، وإذا بها لا ترى ماترى، وترى مالا ترى(١٣). هذه هى مفارقات المذهبية، وهى مفارقات تجافى الموضوعية فى البحث وتهدرها، الأمر الذى يجعل الشخصية العلمية أو الباحث يفقد مقوما مهما جدا يجب أن يتحلى به.

وإذا كان المحدثون قد أوجبوا على الباحث أن يتوخى الموضوعية فى كل بحث يتصدى له فإننا نجد المفكرين والعلماء المسلمين قد سبقوا إلى هذا الضمار؛ فقد فطنوا إلى أن الموضوعية والنزاهة فى البحث من المقومات العقلية والنفسية المهمة، وإلى أنهما من خصائص التفكير العلمى ومقوماته الأساسية. وغالباً ما نجدهم يتحدثون عن منهجهم وموضوعيتهم فى البحث فى مقدمات كتبهم.

فمن ذلك ما يوضحه ابن الهيثم لنا، حيث يقول: "إن" الحق مطلوب لذاته، وكل مطلوب لذاته فليس يعنى طالبه غير وجوده؛ ووجود الحق صعب، والطريق إليه وعر، والحقائق منغمسة فى الشبهات، وحسن الظن بالعلماء فى طباع جميع البشر؛ فالناظر فى كتب العلماء إذا استرسل مع طبعه، وجعل غرضه فهم ما ذكروه، وغاية ما أوردوه، حصلت الحقائق عنده، وهى المعانى التى قصدوا إليها، والغايات التى أشاروا إليها، وما عصم الله العلماء من الزلل، ولا حمى علمهم من التقصير والخلل، ولو كان ذلك كذلك لما اختلف العلماء فى شيئ من العلوم، ولا تفرقت آراؤهم فى شيئ من حقائق الأمور، والوجود بخلاف ذلك؛ فطالب الحق ليس هو الناظر فى كتب المتقدمين، المسترسل مع طبعه فى حسن الظن بهم، بل طالب الحق هو المتهم لظنه بهم المتوقف فيما يفهمه عنهم، المتبع الحجة والبرهان، لاقول القائل الذى هو إنسان، المخصوص فى جبلته بضروب الخلل والنقصان، والواجب على الناظر فى كتب

العلوم، إذا كان غرضه معرفة الحقائق، أن يجعل نفسه خصما لكل ما ينظر فيه، ويجعل فكره فى متنه وفى جميع حواشيه، ويمحصه من جميع جهاته ونواحيه، ويتهم أيضاً نفسه عند خصامه فلا يتحامل عليه ولا يتسمح فيه؛ فإنه إذا سلك هذه الطريقة انكشفت له الحقائق، وظهر ما عساه وقع فى كلام من تقدم من التقصير والشبه"(١٤).

ويقول ابن الهيثم فى موضع آخر: "ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى فى سائر ما نميزه طلب الحق لا الميل مع الآراء... وليس ينال من الدنيا أجود ولا أشد قربة إلى الله من هذين الأمرين"(١٥).

فالحرص على توخّى الحق والإخلاص فى طلبه، وإقصاء الذات بكل ميولها ونزواتها، واستبعاد المصالح الشخصية والاعتبارات الذاتية وعدم التعصب، كل هذا وفاء بحق الأمانة العلمية والموضوعية فى البحث.

وزيادة على ما قاله ابن الهيثم نجد دعاء جميلا للجاحظ فى مقدمة كتابه الحيوان يقول فيه: "جنبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سبباً، وحبب إليك التثبت، وزيّن فى عينيك الانصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عز الحق، وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذل اليأس، وعرفك ما فى الباطل من الذلة، وما فى الجهل من القلة"(١٦).

وقد أظهر الإمام "الغزالى" من الأمانة العلمية ما يستحق أن يذكر فى هذا المجال؛ فهو فى حملته على الفلسفة والفلاسفة يقول:

"علمت يقينا أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم فى أصل ذلك العلم ثم يزيد عليه ويجاوز درجته، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم.. إن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمى فى عماية"(١٧).

من أجل هذا لم يقدم الغزالى على نقد الفلسفة وتفنيد أباطيلها إلا بعد أن أكبّ على دراستها وبرع فيها، وتفوق على أهلها فى فهم أسرارها؛ لأن من الضلال الواضح أن ننقض مذهبا لم نحسن فهمه ولم نتعمق فى العلم بحقيقته؛ بل زاد "الغزالى" فلخص الفلسفة فى كتابه "مقاصد الفلاسفة" قبل أن يضع كتابه: "تهافت الفلاسفة" الذى أراد به أن يهدم الفلسفة ويقضى عليها. فقد كانت الأمانة تقتضيه أن يعرض مذهب خصومه وكأنه واحد منهم، بل خير مما يعرضه أحسنهم، ثم بعد ذلك يبدأ فى نقدها ونقضها.

أما ابن رُشد فقد جاهر بحبه للحق فى ذاته من غير نظر إلى قائله أو اهتمام بعقيدته، فهو يقول: "إنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك. وسواء أكان ذلك الغير مشاركا لنا أو غير مشارك فى الملة... وأعنى بغير المشارك: من نظر فى هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الإسلام... يجب علينا إن ألفينا لمن تقدم من الأمم السالفة نظرا فى الموجودات واعتبارا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان، أن ننظر فى الذى قالوه من ذلك، وما أثبتوه فى كتبهم، فما كان منها موافقا للحق قبلناه، وسررنا به،

وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه، وحذرنا منه، وعذرناهم"(١٨).

هذا وقد حدد علماء التربية المسلمون آدابا يجب أن يتحلى بها العالم أو الباحث؛ ومن هذه الآداب "أن يلازم الإنصاف فى بحثه"(١٩) بمعنى أن يكون أمينا، موضوعيا، نزيها فى بحثه، يبحث عن الحق لذاته.

بل عد هؤلاء العلماء "الإنصاف"، والموضوعية، والنزاهة فى البحث من أعظم فوائد العلم، يقول الإمام الشوكانى: "فإذا وطنت أيها الطالب على الإنصاف وعدم التعصب لمذهب من المذاهب ولا لعالم من العلماء، بل جعلت الناس جميعا بمنزلة واحدة... فقد فزت بأعظم فوائد العلم، وربحت بأنفس فرائده؛ ولأمر ما جعل صلى الله عليه وآله وسلم المنصف أعلم الناس وإن كان مقصرا، فإنه أخرج الحاكم فى المستدرك وصححه مرفوعا (أعرف الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس وإن كان مقصرا فى العمل، وإن كان يزحف على إسته)... فانظر كيف جعل صلى الله عليه وسلم المنصف أعلم الناس، وجعل ذلك هو الخصلة الموجبة للأعلمية ولم يعتبر غيرها؛ وإنما كان أبصر الناس بالحق إذا اختلف الناس، لأنه لم يكن لديه هوى و لاحمية ولا عصبية لمذهب من المذاهب أو عالم من العلماء

فصفت غريزته عن أن تتكدر بشيئ من ذلك، فلم يكن له مـأرب ولا مقصد"[٢٠].

هـ ـ أسباب البعد عن الموضوعية:

وقد يسأل سائل: ما الأسباب التى تـؤدى بالبـاحث إلـى عـدم الإنصاف، والوقوع فـى التعصب، والبعـد عـن الموضوعيـة والنزاهـة العلمية؟

وللإجابـة على هـذا التسـاؤل نقـول إن هنـاك أسبابا كثـيرة ومتنوعة تخرج العالم أو البـاحث عـن دائـرة الإنصـاف والموضوعيـة وتوقعه فى موبقات التعصب الكريه؛ من هذه الأسباب:

١- ان ينشأ الباحث فـى بلـد قـد تمذهـب أهلها بمذهـب معين واقتدوا بعـالم مخصـوص، "فـأهل هـذا المذهـب يعتقـدون أن الحـق بأيديهم وأن غيرهم على الخطـأ والضـلال والبدعـة، وأهـل المذهـب الآخر يقابلونهم بمثـل ذلـك؛ والسببَ أنهـم نشـأوا فوجـدوا آبـاءهم وسائر قراباتهم علـى ذلـك، ورثـه الخلـف عـن السـلف والآخـر عـن الأول، وانضم إلى ذلك قصورهم عـن إدراك الحقـائق بسـبب التغيـير الذى ورد عليهم ممن وجدوه قبلهم"[٢١].

٢- حب الشرف والمال اللذيـن همـا أكـثر عـداوة للإنسـان مـن ذئبين ضاريين[٢٢].

٣- ما يقع بين العلماء والباحثين من الجدال والمراء: "فإن الرجـل قد يكون له بصيرة وحسن إدراك ومعرفة بالحق ورغوب إليه فيخطـئ فـى المنـاظرة، ويحملـه الهـوى ومحبـة الغلبـة وطلـب الظهـور علـى

التصميم على مقاله وتصحيح خطئه وتقويم معوجه بالجدال والمراء"(٢٣).

٤- أن يكون بعض سلف الباحث قد قال بقول، ومال إلى رأي فيحمله حب القرابة على الذهاب إلى ذلك المذهب، والقول بذلك القول، وإن كان يعلم أنه خطأ، وذلك ليثبت أنه من بيت عريق فى العلم.

وعلى الرغم من أن هذا مما تميل إليه الطباع الإنسانية إلا أن الإمام الشوكانى يذكر هنا ملحوظة ذكية، حيث يرى أن العرب أكثر ميلا من غيرهم من الأمم إلى التحدث بأمجاد السابقين، ويجدون فيه لذة عظيمة جدا "وهذا لا شك أن الطبائع البشرية تميل إليه ولا سيما طبائع العرب، فإن الفخر بالأنساب والتحدث بما كان للسلف من الأحساب يجدون فيه من اللذة ما لا يجدونه فى تعدد مناقب أنفسهم"(٢٤).

٥- النفاق للدولة والمجتمع، إما خوفا من الضرر من تلك الدولة، وإما محافظة على حظ قد ظفربه الباحث من تلك الدولة من مال وجاه؛ وإما استجلابا لخواطر العوام ومخافة من نفورهم عنه؛ وإما طمعا يظن ويرجو حصوله من تلك الدولة أو من سائر الناس فى مستقبل الزمان والأيام، كمن يطمع فى نيل رئاسة من الرئاسات ومنصب من المناصب كائنا ما كان، ورزق من الأرزاق، أو أي فائدة، فإنه يخاف أن تفوت عليه هذه الفائدة المظنونة والرئاسة

المطموع فيها، فيتظاهر بما يوافق الناس؛ ويتفق عندهم، ويميلون إليه، ليكون له ذلك ذخيرة ينال بها عرض الدنيا الذى يرجوه(٢٥).

٦- أن يكون الباحث قد قال برأى فى مسألة ما، واشتهر عنه ذلك، فإنه يصعب عليه الرجوع عنه إلى ما يخالفه وإن علم أنه الحق وتبين له فساد ما قاله(٢٦).

٧- الأنفة من الرجوع إلى قول من هو أصغر سناً أو أقل علماً أو أخفى شهرة، حيث يظن الباحث أن فى ذلك عليه ما يحط من الرفعة والعلو(٢٧).

٨- أن يحاول الباحث أن يظهر أنه محقق متقن، وأنه قوى الفهم، سريع الإدراك، صادق التصور، فيحمله ذلك على دفع الحق إذا سبق فهمه إلى الباطل(٢٨).

٩- انقياد الباحث أحيانا وراء بعض العبارات، ويعدها قواعد مقررة قالها السابقون مع أنها ـ فى واقع الأمر ـ ليست فى الغالب ـ سوى كلمات تكلم بها بعض من يعتقده الناس من أهل العلم الذين قبروا فى باطن الأرض ولا مستند لها إلا محض الرأي(٢٩).

١٠- المنافسة بين المتقاربين فى الفضائل أو فى الرئاسة الدينية أو الدنيوية(٣٠).

هذه هى بعض الأسباب التى تؤدى إلى عدم الموضوعية والنزاهة فى البحث وإلى عدم الإنصاف ومخالفة الحق؛ وهناك أسباب أخرى يضيق بنا المقام عن ذكرها هنا، فإننا أردنا فقط أن ننبه على بعض الأسباب كأمثلة على عدم الموضوعية والنزاهة فى البحث،

وهى أمور يجب أن تبتعد عنها الشخصية العلمية الحقيقية التى تطلب الحق لذاته.

وهكذا عرضنا لأهمية الموضوعية للشخصية العلميـة ومفهـوم البحث وأنواعه ومناهجه والهدف منه، ثـم تناولنـا الموضوعيـة بشـيئ من التفصيل مستدلين بأقوال علمائنا الأفـذاد فـى التدليـل علـى أهميـة الموضوعية فى البحث العلمى، ومبينين الأسباب التى تدعو إلـى عـدم الموضوعية كما رآها الإمام الشوكانى فـى أحـد كتبـه. ونحـن علـى قناعة تامة بأن الموضوع يحتاج إلى مزيد من التفصيل والشـرح نظـرا لخطورة الموضوع وأهميته، ولعل الله تعالى ييسر ذلك مستقبلا.

هذا والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

هــوامش

١- د. عبدالرحمن مرحبا: **الفكر العربى فى مخاضه الكبير**، ص ٢٤.

٢- **لسان العرب**، مادة بحث.

٣- ثريا عبدالفتاح ملحس: **منهج البحوث العلمية للطلاب الجامعيين**، ص ٢٤.

٤- د. عبدالرحمن بدوى: **مناهج البحث العلمى**، ص ٤.

٥- يجدر الإشارة إلى أن "**مناهج البحث**" فرع من "**المنطق**" ينصـب علـى دراسـة المناهج بوجه عام، وعلى دراسة المناهج الخاصة للعلوم المختلفة.

٦- **المعجم الفلسفى**: ص ١٩٥.

٧- د. عبدالرحمن بدوى: **مناهج البحث العلمى**، ص ٦-٧.

٨- د. شوقى الجمل: **علم التاريخ ـ نشأته وتطوره ووضعه بين العلوم الأخرى ومناهج البحث فيه** ، ض ١١٢-١١٣.

٩- **ابن خلدون: المقدمة**، تحقيق د. على عبدالواحد وافى، ١٣٤٧/٤- ١٣٥٠.
١٠- حاجى خليفة: **كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون**، ٣٥/١.
١١- جمال الدين القاسمى: **قواعد التحديث**، ص ٧.
١٢- ابن سينا: **المباحثات**، ص ٢٨٨.
١٣- د. محمد عبدالرحمن مرحبا: **الفكر العربى فى مخاضه الكبير**، ص ٢٣.
١٤- الحسن بن الهيثم: **الشكوك على بطليموس**، تحقيق د. عبدالحميد صبره و د. نبيل الشهابى، المقدمة.
١٥- الحسن بن الهيثم: **كتاب المناظر، المقدمة**.
١٦- الجاحظ: **كتاب الحيوان**، تحقيق عبدالسلام هارون، المقدمة.
١٧- أبوحامد الغزالى: **المنقذ من الضلال**، تحقيق د. عبدالحليم محمود، ص ٣٤١.
١٨- ابن رشد: **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال**، تحقيق د. محمد عمارة، ص ٢٦-٢٨.
١٩- ابن جماعة: **تذكرة السامع والمتكلم فى آداب العالم والمتعلم**، ص ٤٢.
٢٠- الشوكانى: **طلب العلم وطبقات المتعلمين**، ص ١٠
٢١- المرجع السابق، ص ١١.
٢٢- المرجع السابق، ص ٢٣.
٢٣- المرجع السابق، ص ٢٦.
٢٤- المرجع السابق، ص ٢٧.
٢٥- المرجع السابق، ص ٢٩.
٢٦- المرجع السابق، ص ٥٣.
٢٧- المرجع السابق، ص ٥٤.
٢٨- المرجع السابق، ص ٥٥.
٢٩- المرجع السابق، ص ٧٤-٧٥.
٣٠- المرجع السابق، ص ٧٩.